من قلعة الرخام إلى قلعة اللغة
محمود درويش يحاول إحراق أساطيره

يبدو محمود درويش فى ديوانه الأخير «هى أغنية هى أغنية» متشحا بندم ملىء بالفوضى والصراخ. لقد اكتملت أساطيره التى بناها من الاستعارات الفذة والجدل المفعم بالحيوية فى ديوانه «حصار لمدائح البحر» وكان لا يزال يحس صلابة الأحجار رغم فوران الزلازل تحتها وكانت بيروت بكل أهوالها «نرجسة الرخام» تمر بتحولاتها المروعة ولكنه فى ديوانه الأخير يرى نفسه وشعبه فى نزل على البحر يرى نفسه ضيفا يعتذر عن إقامته القصيرة إنه يريد بعد الخروج من بيروت أن يلتقط كالطائر فوق البحر بعض الحياة.

ونريد أن نحيا قليلا لا لشىء
بل لنرحل من جديد

ويبدأ الندم بشىء من الاحساس بالذنب «لا تعطنا يا بحر ما لا نستحق من النشيد» وهو يعلن فى صدر ديوانه عن خروج نهائى فلا صيغة تحمل من الإلحاح ما يؤكد نفاد الصبر والسخرية والوصول إلى دائرة العبث.

سنخرج، قلنا سنخرج
فلتتركوا حيزا للوداع الأخير سلام علينا، سلام علينا.
سنجمع أعضاءنا فى الحقائب فلتوقفوا القصف خمس دقائق

إن هــذه القصيدة «ســنخرج» هى افتتاحية مثيرة بقــدر ما تحمل من الحسم والمراوغة من التسليم والمقاومة، من الجدل الذى يقفز بين النقائض بحثا عن ســاحل أو شــكل للأرض فى تيه من بحار تغلى بمرحلة ما قبل الخليقة، وهى افتتاحية يعلن فيها الشــاعر الانتقال من الجسد إلى الظل ومن الحجر إلى اللغة ومن الأرض إلى الهواء، وإن كان يوهمنا فى نهاية القصيدة بجدلية التحول أن لحظة الخروج هى لحظة الدخول أيضا.

وكنا على رقعة البر ساعة حائط
ويوم قرنفل
وداعا لمن سوف يأتون من وقتنا صامتين
ومن دمنا واقفين لندخل
سنخرج
قلنا سنخرج حين سندخل

يســتمد محمود درويش براعته الشــعرية من إتقانه للاستعارة بل إنه تجــاوز بهــا الحدود القصوى إلــى حد أنه أصبح يتعامل مع الاســتعارة باعتبارها هى الحقيقة وهنا صك درويش أســطورته اللغوية ويبدو أنه كان طوال الوقت يشعر بخداع الواقع من حوله. الزلازل النكسات التراجعات الفجائــع التى لا تنتهى. كان يعــرف صيرورة الواقع الأبدية وخيانة هذا الواقع المستمر لحلم الشاعر لهذا كان إلحاحه على تجسيد هذا الحلم فى «أغنية» لقد أحس درويش معظم الوقت أن المناســبة تحاصره وأنه يحيا شعريا فى المؤقت ولذا عليه أن يتجاوز الواقع إلى خلود الأغنية وانهمرت أشــعاره خاصة بهذ الكرنفالات الحاشدة بالبشــر المنحدرين من التاريخ

مرة ومن الحقول مرة أخرى. حفل شـعره بالجثث والمهرجين والشـهداء ورجال البنوك وعكسـت الصورة الشـعرية كل هذا فـى مزيج مدهش من الحسـى المباشر الخطابى أحيانا والذى يصيب بالدهشة والإثارة كل من يقرأه وبين المعنوى المشتق من الأساطير والديانات والميتافيزيقا والأحلام لقد صهر أدونيس فى أحشائه العامرة بالتجارب المأساوية وأحال تجربته الشـعرية إلى نموذج جديد من الكائنات الشـعرية التى تقترب من عوالم سـلفادور دالى مـرة واكتئاب أبى العلاء المعرى مـرة أخرى. فى ديوانه الأخير «هى أغنية» يبدو محمود درويش وكأنه فى حاجة إلى أن يخاطب نفسـه أكثر مما يخاطب جماهيره، إنه فى البحر والهواء فى طريقه إلى مجهول غامض تحمله طائرات تحط لتقلع ورأى محمود درويش أن حصاد الرحلة كان مجرد أغنية. مجرد حلم. إن كل الفجائع التى يمر بها تدخل إلى المرحلة اللغوية من المبنى إلى المعنى من المكان إلى الزمان يقول:

منذ الصعود إلى الهبوط إلى محاولة الصعود على
الصدى. هى أغنية،
سيوزع النسيان أعشابا على جدرانها وسنستعيد
أيام إخوتنا وتاريخ انبجاس الماء من حجر فكم سنة
سنبقى
فى قاع هاوية نعلم روحنا قداسها وجناسها

لم يصعد الشاعر طوال هذه المرحلة إذن على جناح الفعل الثورى بل كان يهبط إلى هاوية الأغنية هنا ينبثق ندم عاصف:

صدقت أغنيتى وكذبت الخريف وليتنى كذبت أغنيتى وصدقت

الخريف..

ثم يواصل التهكم على الشعر:

هل نستطيع العيش أكثر ما استطعنا كى نرى
ذهب الكلام
خبزا وفاكهة؟ «اسأت إليك يا شعبى» اسأت كما
أساء الحب لى
وأصبت طفلا بالأغانى حين قدست المعانى وحدها
وتركت سكان القصيدة فى مخيمهم يعدون الهواء
على الأصابع

والشـــاعر يتمادى فى هذا الإحساس المفعم بالندم حتى ليتساءل آن للشـــاعر أن يقتل نفســـه وهو يفتتح القصيدة كما لو كان هذا الفعل الذى يراوده إنما هو نوع من أفعال العبث فيقول:

آن للشاعر أن يقتل نفسه
لا لشىء بل لكى يقتل نفسه

هل هى السخرية المرة من الواقع وما يقع فيه أم الإحساس بالخواء بحيث لم يعد لفعل القتل من مبرر لأن ســـقوط الأشـــياء أســـقط معه كل المبررات. فليس القتل بطولة أو استشهادا لأن هذه المعانى قد انسحبت من المجال الواقعى لرؤية الشاعر ولكنه يدرك على الفور أن هذا المطلع ليس إلا تبسيطا مخلا بحدود الفاجعة، فيفسر لنا أن قتل الشاعر نفسه ليس فعلا عبثيا بل هو رد على العبث حين يقول:

من ثلاثين شتاء
يكتب الشعر ويبنى عالما ينهار حوله
يجمع الأشلاء كى يرسم عصفورا وبابا للفضاء
كلما انهار جدار حولنا شاد بيوتا فى اللغة
كلما ضاق بنا البر بنى الجنة وامتد بجُمله
من ثلاثين شتاء وهو يحيا خارجى

وإذا تأملنا عناوين ديوان «هى أغنية هى أغنية» لمحمود درويش سنرى ظل التراجع والندم والسخرية وكأن الشاعر على وشك إحراق الأساطير التى أتعب نفسه لكى يخلقها طوال كدحه كشاعر.. تقول العناوين «سنخرج» «غبار القوافل» «هذا خريفى كله» «فى آخر الأشياء» «محاولة انتحار» «آن للشاعر أن يقتل نفسه» «يكتب الراوى يموت».

وإذا كان الندم يأخذ طابعا شبه عدمى فى بعض القصائد فهو فى قصيدته «أسميك نرجسة حول قلبى» والتى يهديها إلى رفيقه الشاعر سميح القاسم يضىء ندمه بوعى يطوف حول الجذور. ندم على الخروج من الوطن إلى هواء العالم الخانق يقول درويش مفسرا حادثة الخروج:

دوائر حول الدوائر دعنى أفسر لك الحادثة
حلمت. كما كنت تحلم. أن حزيران أقسى الشهور
«وواضح الإشارة إلى حزيران ١٩٦٧».
وأن الكلام الذى يتكرر فينا لكى نتبعه هو الكارثة
حلمت كما كنت تحلم أن البحيرات زرقاء خلف يدى
وخلف يديك

وأن الطريق المعاكس أقرب منى إلى وأقرب منك إليك
وأن لحريتى رمز تموز والزوبعة
حلمت فطرت لأدخل ثانية فى الجذور
وغبت لأحضر كل هدايا اللغة إليك
وكدت أعود قبيل انبثاق الفراق
ولكن حادثة الوهم تمت وتم احتراق البراق
على شارع عج بالحالمين
وبالرحلة الثالثة.

هذا الديوان يدخل بنا عصب الفاجعة حيث يتراجع صوت الشاعر إلى قوقعة النفس يحاسبها ويتأمل آخر الأشياء.

ثمر على وشك السقوط عن الشجر
تلك النهاية والبداية أو كلام للسفر

ولأن الرؤيــة تميل فى هذا الديوان إلــى الالتفاف حول الذات فهى تنعكــس تعبيريــا فى هذا التمــدد الكمى فى البناء حيــث يكثر التكرار والاســتطراد ويبدو الشاعر متكلفا فى بعض الصور وكأنه يصنعها بذهنه خاصــة عندما يحاول ترجمة أفكاره عن الواقع وبدلا من الخطابية التى كانــت تجلجل فى عــروق قصائده الأخرى تميــل الغنائية إلى قدر من الشحوب، فالعزف منفرد.

بحر أمامى والجدران ترجمنى
دع عنك نفسك واسلم أيها الولد
البحر أصغر منى كيف يحملنى

والبحر أكبر منى كيف أحمله
ضاقت به اللغة استسلمت للسفن
وغص بالقلب حين امتصه الزبد
بحر على وفى الأبيض – الأبد
والعزف منفرد

أصبح الإيقاع أقرب إلى غناء المهد لأن العزف أصبح منفردا. إن محمود درويش الذى يحاول فى هذا الديوان إحراق أساطيره إنما يبنى أسطورة جديدة من أشلاء أساطيره القديمة وبهذا يظل طائر الفنيق متأهبا للولادة فى كل ديوان من دواوينه.

❑❑❑